الطفل بين أمه العربية وأمه الحديثة

للأستاذ عبد القادر المسيرى

إن لتربية الطفل فى أول دور من أدوار حياته لأثرا فعالا فى تكوين رجولته وتكميل عقيلته . فإن حسن تنشيئه والعناية بمراقبته ونثر الألفاظ الراقية على مسمعه ونبذ الألفاظ المستهجنة والبخل بها عليه لمما يرقى خلقه ، ويحسن أدبه ويكبر همته ويرفع قيمته .

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وإن الأم لتلعب دورا مهما فى تربيته وإعزاز نفسه .

والأم العربية منبت فتيان العرب ومقعد فخرهم ومثار حميتهم ومستقى أدبهم . . وملاذهم إن جدّ بهم الدهر . ومفزعهم إن أشكل عليهم الأمر . ومعولهم إن فدح الخطب وعز المعين. وهى موطن ثقة الأدب وفخر الابن وعز العشيرة .

وكيف لاتكون كذلك وقد نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم بفخره بأمهاته فى الجاهلية وهو أكرم العالمين خلقا فقال " أنا ابن العواتك من سليم " يقصد عاتكة بنت هلال أم جده عبد مناف . وعاتكة بنت مرة أم جده هاشم ، وعاتكة بنت الأوقص أم جده وهب من ناحية أمه فالأولى عمة الثانية والثانية عمة الثالثة .

وكان الحسن والحسين عليهما السلام يدعيان بابنى الفواطم . وهن ثلاث أيضا : الأولى سيدة النساء فاطمة الزهراء بنت الرسول ، والثانية فاطمة بنت أسد زوج أبى طالب ، والثالثة فاطمة بنت عبد الله جدة رسول الله وثلاثتهن من قريش . . وبهن يعتز الأولاد ويفتخر بالانتساب اليهن الأحفاد .

جاء الأشعث بن قيس إلى على كرم الله وجهه يخطب اليه ابنته فقال له "غرك ابن أبى قحافة إذ أعطاك ابنته وليست من الفواطم من قريش ولا العواتك من سليم " .

ومن العرب عدد غير قليل آثر الانتساب إلى أمه . ومن هؤلاء " بجيلة ومزينه وسلول وطهية " كما أن هناك عددا من مشهورى رجالاتهم وملوكهم انتسب إلى أمه كعمرو بن هند ، والمنذر بن ماء السماء . . . بل منهم من تكنى باسم ابنته كابى ليلى مهلهل بن ربيعة وأبى سفانة حاتم الطائى . وأبى نضلة هاشم بن عبد مناف . . . وإذا كان شديدا على الرجل

منهم أن يقال له عند التوبيخ والذم "لا أب لك" فان أوجع من ذلك وأشد أن يقال له "لا أم لك" . . وليس عجيبا أن يقوم لبيد بن ربيعة فى جمع من بنى عامر بين يدى النعمان بن المنذر فيقول :

"نحن بنو أم البنين الأربعة" .

وما كان لأحد من العرب أن يجاذب امرأته فخر تربية أبنائها وفضل تأديبهم حتى لقد كانوا يلقبون المرأة إذا انحسرت عن ثلاثة بنين فنهـه ذكرهم وذاعت مآثرهم "بالمنجبة" ويتخذونها لذلك مضرب أمثالهم ومسار شعرهم ومساق مفاخرهم . . . وما كان الرجل فى شىء من ذلك اللقب المجيد ، لأن تربية الطفل معهود بها إلى أمه لا إلى أبيـه . . . فهى المنجبة وهى المربية . . . وقد حلى بذلك اللقب كثير من عقائل العرب منهن فاطمة بنت الخرشب وهى التى أنجبت الأربعة الكملة (ربيعة وقيسا وعمارة وأنس) وهى أم البنين الأربعة المتقدم ذكرها على لسان لبيد . . . . وعاتكة بنت هلال السلمية المتقدم ذكرها فى العواتك وهى التى انجبت — هاشما وعبد شمس والمطلب .

كل ذلك وأمثاله مما جعل نساء العرب يشخصن بأبصارهن ويرمين بأمانيهن إلى أبنائهن.

وإن حسب الطفل أن يضطرب فى أحشاء أمه حتى يدعوها الى الاطراق الطويل والتفكير العميق . وربما هاج ذلك ضربا من الخيال ينبعث من أعماق صدرها فيثير دمها ، ويرهف حسها ، ويتمثل بين مسارب سمعها صوتا واضح المنطق فياض المعانى يسوق لها البشرى . ويضىء بين يديها مناهج الأمل ... ويهديها الى خير العمل . فتحسب ذلك هاتفا يهتف بها... وما هو إلا صوت القلب يشدو بايقاع الأمانى. يسمعنه إذا هدأت عيونهن . أو يسمعنه وهن يقظات. منهن ليلى بنت مهلهل أم عمرو بن كلثوم... هتف بها الهاتف حين حملت بابنها فقال لها :

يا لك ليلى من ولد يقدم إقدام الأسد
من جشم فيه العدد أقول قولا لا فند

فلما استكمل وليدها سنة ، أتاها ذلك الهاتف ليلا فأشار الى الطفل وقال :

إنى زعيم لك أم عمرو بما جد الجد كريم النجر
أشجع من ذى لبد هزبر وقاص آداب شديد الأسر
يسود هم فى خمسة وعشر

فساد قومه ولم يجاوز الخامسة عشرة من سنيه .

ومنهن عتبة بنت عفيف أم حاتم الطائى سيد سماء العرب وأجوادهم هتف بها الهاتف فقال "أغلام سمح يقال له حاتم أحب اليك أم عشرة غلمة كالناس — ليوث ساعة الباس. ليسوا بأوغاد ولا أنكاس ؟ فقالت حاتم ... وأمثالهن كثيرات لا يحصين عدا .

فإذا ولد الطفل تبدأ أمه تربيته بتسميته . وربما أشركت فى ذلك أباه ... فان كان ولدا تخيرت له كل صلب شديد من الأسماء ينمى به حسه وتنبت به شجاعته فمن أسمائهم "صخر . حرب . حنظله . علقمه . أسد . نمر . سرحان" وأشباهها مما لايشعر بوهى عند النداء ، ولا انثناء عن الأعداء .

أما البنات فيختار لهن كل خفيف المسمع بديع الموقع... فمن أسمائهن "ليلى . سعدى . مية . أمية . حبيبة . النضيرة" ونظائرها .

احفظوا ذلك واستمعوا الى الأسماء التى تختارها المرأة الحديثة لأطفالها من مثل "حلمى . طلعت . عصمت . حكمت . رأفت . عرفى" وأشباهها من الأسماء الشائعة فى الطبقة العليا ومن مثل "حميدو . دقدق . فلفل . عوكل . الدكش . سفروت . المتراز" ونظائرها من الأسماء المنتشرة فى الطبقة الدنيا ... فان دلت الأولى على شىء فإنما تدل على عظمة جوفاء فى الطبقة الأولى إذ أن أكثرها مأخوذ من الأسماء التركية ...وتدل على سوء الاختيار وانحطاط الذوق فى الطبقة الثانية ... وهن بذلك يمهدنه ليكون مترفا ضعيف الحول والطول فى الأولى "فتوة بلطجيا" فى الطبقة الثانية تبعا لمدلول هذه الأسماء .

ارجعوا بنا الى المرأة العربية . وانظروا اليها اذا جاء دور إرضاع الطفل وتنشيئه ، هنالك تمهد طفلها لما هو أهل له من عظمة الحياة . فتجهد ألا يصدع سمعه شىء من دنىء الألفاظ ورذلها . بل تردد له فى إرضاعه ومداعبته ألفاظ الشرف والسؤدد . وتلقنه آيات المجد والكرم .. وأنت جد عارف بما يسمعه الطفل فى عصرنا من أمه وأبيه فى هذه الأثناء . وما يعامل به من سوء ... فهل أنت فى حاجة الى أن نسرد عليك شيئا منها من مثل "أوع البعبع . وأبورجل مسلوخة" وما أشبهها مما ينشئ الطفل جبانا ، سىء التربية ... ومن مثل "اشتم أخاك واضرب أختك" مما يجعله جريئا فى غير مواضع الجرأة .

فأى صفة من الصفات العالية والأخلاق الكريمة يلقن الطفل فى عصرنا الحديث ؟ استمع الى نساء العرب . وهن يدللن أطفالهن ويرقصنهم ويلقنهم فى الصغر بما يبعث فيهم غر المكارم وحر العظائم ... فمن قول منفوشة بنت زيد الخيل وهى ترقص ولدها :

أشبه أخى أو أشبهن أباك أما أبى فلن تنال ذاك
تقصر عن منالة يداك

مما يدل على مبالغة فى الإغراء وافتنان فى التشويق .

ومثل ذلك قول أم الفضل بنت الحارث وهى ترقص ولدها عبد الله بن عباس :

ثكلت نفسى وثكلت بكرى إن لم يسد فهرا وغير فهر
بالحسب الذاكى وبذل الوفر

ومن مثل ماروى أن حليمة السعدية مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم غفلت عنه يوما فى الظهيرة فخرجت تطلبه فوجدته مع أخته فى الرضاع "الشيماء" وقد أجلسته على حجرها وأخذت ترقصه بقولها :

هذا أخ لى لم تلده أمى وليس من نسل أبى وعمى
فأنمه اللهم فيم تنمى

فقالت حليمة : فى هذا الحريا شيماء، فقالت يا أمه : ماوجد أخى حرا، رأيت غمامة تظل عليه . إذا وقف وقفت . وإذا سار سارت . حتى انتهى الى هذا الموضع .

اذا سمعت هـذا فاسمع ما يقال فى ترقيص الطفل الحديث أو بالأحرى فى تنويمه والتخلص منه لتفرغ أمه الى ما توحيه اليها المدنية الحديثة من تقليد وجرى وراء الأوهام فهى تغنيه بقولها :

نم يا حبيبى نام وأنا أدبح لك جوزين حمام
ما تخافش يادى الحمام دنا بقوله علشان ينام

ثم استمع الى قولها فى ترقيصه مما يكشف عن سريرة نفسها من معانى الجدل والسرور اذا بكرت بولد :

لما قالوا دغلام شد ظهر أبوه وقام
وجابولى البيض مقشر وعليه السمن عام

والى قولها مما يكاد يفيض بحزنها اذا هى بكرت بأنثى :

لما قالوا دبنية طربقوا الفرن عليه
وجابولى البيض بقشره وعليه السمن ميه

وهن اذا كن قد ترقين واقتبسن مما يسمعن من صوت المذياع فلا يزدن عما تقوله الآنسة أم كلثوم :

نامى نامى يا ملاكى فى أمان اللى رعاك
يا منى قلبى وعنيه كل شىء هين عليه
وانت نايمه بين ايديه نامى نامى حوه

أو ما تقوله أبله "سوسو" موقعا على الموسيقى فى نداء أطفالها فى يوم الحديث اليهم :

بنيه بنيه تعالوا لى
سألقى عليكم حديثا شهيا

أو قولها فى توديعها لأطفالها :

الى اللقا أحبتى الى اللقا القريب
فلتذكروا محبتى وعطفى العجيب

عبد القادر المسيرى
بوزارة الشؤون